أثر الزَّمان والمَكان في التَّحليل النَّحويّ عند أَعْلام المُفَسِّرينَ

❖ الدكتور: ميسَّر عذيمان السَّاري ـ محاضر في قسم اللغة العربية (الدراسات العليا) جامعة الفرات ـ فرع الحسكة.

الملخص

يسلط البَحْث الضوء على عنصري الزَّمان والمَكان (المَكيّ والمَدَنيّ) بوصفهما من المؤثرات السِّيَاقيَّة المهمة في التَّحليل النَّحويّ عند أَعْلام المُفَسِّرينَ ؛ إذ أسهمت في إيضاح بعض المبهمات، وبيان مرجع الضَّمير، ومعاني بعض الأدوات بعيدًا عن إعراب المفردات والجمل بصورته التَّقليديَّة.

وتكمنُ أهميةُ البَحْثِ في أنَّه وضَّح هذين العنصرين في ميادين اللُّغة والأدب والتَّفسير لرصد نظرة كل أصحاب اختصاص من منظوره الخاص، وأعقب ذلك بتفصيل هذين العنصرين لدى المشتغلين بخدمة كتاب الله تعالى من مفسرين ومنظرين في ميدان علوم القرآن قدامى ومعاصرين مؤيدين ومعارضين. تلا ذلك مجموعة من النَّماذج التي تناولها أَعْلام المُفَسِّرينَ بالشَّرح والتَّوضيح بالاعتماد على زمان الحدث ومكانه، وقد كانت قليلةً، وهو ما شكَّل أحد الصُّعوبات التي واجهت البَحْث.

سُبق البَحْث بدراساتٍ لا تعدُّ، ولا تُحصى للمكيّ والمدنيّ قديمًا وحديثًا، وجديد بحثنا أنَّه تناول المَكيّ والمَدَنيّ أداةً بيد المُحلِّل النَّحوي المُفَسِّر في بيان مراد الله تعالى، وما تمخض عنه من أحكام شرعيَّة في هذا الخصوص، وقد قام البَحْث على الطَّريقة العلميَّة للبحث (Scientific Method التي تجمع بين الطَّريقتين الاستقرائيَّة والاستنتاجيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: الزَّمان – المَكَان- التَّحليل النَّحويّ- المُفَسِّرونَ.

الزَّمان والمَكان في اللُّغة والأدب والتَّفسير:

أ- في اللُّغة:

الزَّمان لغة: قال ابن فارس (تـ 394هـ): "الزَّاءُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى وَقْتٍ مِنَ الْوَقْتِ. مِنْ ذَلِكَ الزَّمان، وَهُوَ الْحِينُ، قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ. يُقَالُ زَمَانٌ وَزَمَنٌ، وَالْجَمْعُ أَزْمَانٌ وَأَزْمِنَة[1]". وفي الاصطلاح: "هُوَ عبارَة عَن امتداد موهوم غير قارّ الذَّات مُتَّصِل الْأَجْزَاء[2]".

وأمَّا المَكَان لغة فهو: "المَوْضِعُ، كالمَكَانةِ؛ وَمِنْه قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس : 67] ج أَمْكِنَةٌ وأَماكِنُ، تَوَهَّمُوا المِيمَ أَصْلاً حَتَّى قَالُوا: تَمَكَّنَ فِي المَكَان، وَهَذَا كَمَا قَالُوا فِي تَكْسِيرِ المَسِيل أَمْسِلَة؛ وقيلَ: المِيمُ فِي المَكَان أَصْلٌ كأَنَّه مِن التَّمَكُّنِ دُونَ الكَوْنِ، وَهَذَا يُقَوِّيه مَا ذَكَرْناه مِن تَكْسِيرِه على أَفْعِلةٍ[3]".

وفي الاصطلاح هو: "الْحَاوِي للشَّيْء المُستقّر كمَقعد الْإِنْسَان من الأَرْض وَمَوْضِع قِيَامه وإضجاعه، وَهُوَ فَعَالٌ من التَّمَكُّن لَا مفعل من الْكَوْن، كالمقال من القَوْل، لأَنهم قَالُوا فِي جمعه: (أمكن) و (أمكنة) و (أَمَاكِن) وَقَالُوا: تمكن، وَلَو كَانَ من القَوْل لقالوا: تكون وقالَ اللَّيْثُ: المَكَان اشْتِقاقُه مِن كانَ يكونُ، ولكنَّه لمَّا كَثُرَ فِي الكلامِ صارَتِ المِيمُ كأَنَّها أَصْليّةٌ[4]".

ب- **في الأدب:**

تختلف النَّظرة في هذا المضمار عنها في ميدان الجغرافية أو التَّفسير، فالمكان في الأدب يحتاج إلى الزمان؛ لأنَّه يتشكل فيه، ويتحرَّك بحركته عبر أشيائه، وإنَّ الزمان يؤلف من مجموع الأصوات الرَّفيعة مكانًا نغميًّا تعرضه الأذن متحركًا عبر المكان، فيدرك، ويفكر بأبعاده وعلاقاته[5]، وإذا كان المَكَان غير مستساغ الاسم عند الشَّاعر كرهه، وأبدى امتعاضه منه. ورد في سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي(تـ 466هـ) : " أنَّ الفرزدق أنكر على مالك بن أسماء بن خارجة، وقد أنشده:

حبذا ليلتي بتلّ بونَّى

وقال أفسدت شعرك بذكر(**بونَّى**) قال له: ففي بونَّى كان ذلك قال: وإن كان[6]".

وينحو د. أحمد زياد محبَّك نحوًا قريبًا من هذا، فلا يقبل بالمَكَان المجرد من لمسات فنيَّة للمبدع" فالشَّاعر عندما يصف لا يصف واقعًا مجرّدًا، ولكنَّه واقع مشكَّل تشكيلًا فنيًّا، فالوصف للمكان هو وصف لوحة مرسومة، أكثر من واقعي موضوعيّ[7]"، وأمَّا في الحقل الرّوائي فإنَّ" المَكَان لا يتوقف حضوره على المَعْنَى الحسّي، وإنَّما يتغلغل عميقًا في الكائن الإنساني حافرًا مساراتٍ وأخاديدَ في مستويات الذَّات

---

1 - ابن فارس أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرَّازي معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر،1399هـ، 1979م، (زمن).

2 - الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تح: عدنان درويش - محمَّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 486.

3 - الزَّبيدي، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض: تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، (كون).

4 - الكليات، ص: 826.

5 - الرَّباعي ، عبد القادر: تشكيل المعنى الشّعري ونماذج من القديم، مجلة فصول، مجلد 4، عدد2 ،1984، ص56.

6- ابن سنان الخفاجي، أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن سعيد الحلبي: سرُّ الفصاحة، ط (1) دار الكتب العلمية،1402هـ،1982م، ص 69.

7 - محبك، أحمد زياد: جماليات المكان في الرواية، مجلة الفيصل، العدد (246)، 1421هـ، 2000م، ص 56.

المختلفة ليصبح جزءًا صميميًّا منها، وذلك؛ لأنَّ المَكَان هو الفُسحة /الحيّز/ الذي يحتضن التَّفاعل بين الأنا والعالم[1]".

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المَكَان له حضور مميَّز في نفس الكائن البشريّ أيًّا كان، وهذا ما عبر عنه غاستون باشلار، إذ رأى أنَّ " علاقة الإنسان بالمَكَان علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المَكَان، بل ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المَكَان، فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل [2]". وقد تحدث عن جزئيات المَكَان بتفصيل دقيق، وممَّا قاله عن أوَّل مكان يألفه الإنسان " البيت الذي ولدنا فيه، أي: بيت الطفولة، ذلك المَكَان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكَّل فيها خيالنا. فالمَكَانية في الأدب هي الُصُّورة الفنية التي تذكِّرنا، أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة، ومكامن الأدب العظيم تدور حول هذا المحور [3]".

ت- في التَّفسير:

حضر عنصرا الزَّمان والمَكان في النَّصّ القرآني بشكل واسع تجاوز حدودهما الحسيين إلى ما وراء الطبيعة (الغيب)، وامْتَازَ النَّصّ القُرآنيُّ من غيره من النَّصّوصِ بتوقُّفِ كثيرٍ من أحكامِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ الفترَةِ الزَّمنيَّةِ الَّتِي نَزَلَ فيها، وعَلَى مَعْرِفَةِ المَكَان الجغرافيّ الَّذِي أحاطَ به؛ لأنَّه جَاءَ ملبيًّا الاحتياجاتِ التَّشريعيَّة كَافَّةً آخذًا بِالحُسْبَانِ طَبِيْعَةَ المُخَاطَبينَ وطريقتَهُم في التَّعامل مع الأَحْدَاثِ. من هنا تَتَبَّعَ المُختصُّون بعلومِ القُرآن الأزمنةَ والأمكنةَ الَّتِي نَزَلَ فيها القُرآن بُغْيَةَ الإلمام بكلِّ المُعْطَيَاتِ المُعينة عَلَى الفَهْم السَّليم، واستنباط الحُكم الشَّرْعِيّ المُنبثق عن هَذَا الفهْم، ويتَّسم المَكَان في هذا المضمار بالصِّدق والمصداقيَّة فهو مكان حقيقي واضح المعالم والحدود في زمن محدد بدقَّةٍ متناهية تجعل الفكر منصبًّا عليه، ولا يخطر بالبال سواه؛ لأنَّ معرفته حتميَّة على من يتصدى لتفسير النَّصّ القرآني بخلاف المَكَان في الميدان الأدبي ذلك الذي لا يقبل أن يأتي من دون تدخل المبدع في كل تفاصيله بالمعول تارةً لتقبيحه والتنفير منه، وبريشة الرسام لتزيينه وإضفاء مسحة الجمال عليه تارةً أُخرَى بغية إظهاره بصورة تبهر المتلقي جمالًا أو قبحًا، ولم يكن نشدان الجمال بكل ألوانه غائبًا عن أذهان المشتغلين بالنَّصّ القرآني، وقد " رأى المُفَسِّرونَ أنَّ الوجه النَّحويَّ المتكلَّف يحطُّ من جمال النَّص القرآني ؛ لذا قابلوه بالرَّفض والاستهجان[4]".

وقد أخذت دراسة زمن النَّصّ ومكانه نمطين مختلفين، الأوَّل: على أنَّه فرع من فروع علوم القرآن يستعين به دارسو النَّصّ القرآني من مفسرين ومحدِّثين وفقهاء لمعرفة الملابسات الزَّمانية والمَكَانية التي أحاطت بالنَّصّ إبَّان نزوله لمعرفة قُصود الحقّ سبحانه وتعالى واستنباط الأحكام الشَّرعية المتوقفة على ضرورة الإحاطة بالظُّروف الملابسة للنص القرآني، وأشهرها كتابا البرهان والإتقان في علوم القرآن للزَّركشي(تـ 794هـ) والسُّيوطي(تـ 911هـ) ومن سبقهما ومن نسج على منوالهما من القدامى والمعاصرين، والثاني: دراسات تناولت الموروث القديم بالنَّقد والتَّقويم وفق رؤية غربيَّة تنكر الغيب، وتعده ضربًا من الخرافة والأسطورة، ولم تراع خصوصيَّة النَّصّ القرآني، فكان التَّشكيك عنوانها من خلال تلمُّس بعض وجوه التَّناقض بين المرويات تارةً[5]، وإسقاط آليات محاكمة النَّصّ المعاصرة على ما سبقه بقرون تارةً أُخرَى كتلك الدراسة التي قدمها الدكتور نصر حامد أبو زيد بعنوان (مفهوم النَّصّ دراسة في علوم القرآن) وقد لاقت هجومًا عنيفًا في الأوساط الثقافية الإسلاميَّة. أما دراستنا المتواضعة

1 - حسين، خالد حسين: كتاب الرياض العدد 83، شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجًا)، ص 60.

2 - باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط (6)، بيروت، لبنان، 2006م، ص 24.

3 - السابق، ص 90.

4 - السَّاري، ميسَّر: الرؤى الجمالية في أعاريب أعلام المفسرين، مجلة الآداب واللغات الجزائرية، م (8)،ع (2)، جوان - جويلية- 2022م، ص 93.

5 - هناك فرق بين تناقض النُّصوص وتدرج النُّصوص مراعاة لحال المخاطب. فالتدرج فِي تَحْرِيم الْخمر على سبيل المثال جاء تبعًا لحال المخاطبين، وتم تنفيذه على مراحل أوصلت المتلقي إلى الاقتناع التَّام بحرمته.

فقد رصدت عنصري الزَّمان والمَكان كقرينة سياقية لدى أَعْلام المُفَسِّرينَ ذوي النَّزعة اللُّغوية في ميدان تحليلهم النَّحوي، وما أفرزه ذلك من دلالات ومعانٍ.

المَكيّ والمَدَنيّ:

اتفق المُختصُّون بدراسة النَّصّ القرآني عَلَى تَسمِيةِ زَمَانِ النُّزول ومَكَانِه بـ "المَكيّ والمَدَنيّ"، إذ تشكِّلُ مكَّة والمَدِيْنَةُ بيئتين جُغْرافيَّتين وقعتْ فيهما أكثرُ الأَحْدَاثِ المؤثِّرة في سَيْرِ الدَّعوة كما كان لحدثِ الهِجْرَةِ من مكَّة إِلَى المَدِيْنَةِ وفتْحِ مكَّة الأثرُ الأهمُّ في سيْرِ الأَحْدَاثِ، إذ شَكَّلَت هَذِهِ التَّطوراتُ مُنعطفًا مُهِمًّا في مَسَارِ الدَّعوة الإسلاميَّة، لكنَّهم اخْتَلَفوا في تَحْدِيْد إطاري الزَّمان والمَكان، فكانَ لهم في ذَلِك ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الأَوَّل: أنَّ المَكِّيّ ما نَزَلَ بمكَّة، وَالمَدَنِيّ ما نَزَلَ بالمَدِيْنَة، والثَّانِي: وَهُوَ المشهورُ أنَّ المَكِّيّ ما نَزَلَ قبلَ الهِجْرَة، ولو كانَ بالمَدِيْنَةِ، وَالمَدَنِيُّ ما نَزَلَ بعد الهِجْرة ولو كان بمكَّة، والثَّالِث: أنَّ المَكِّيّ ما خُوطبَ به أهلُ مكَّة، وَالمَدَنِيّ ما خُوطب به أهلُ المَدِيْنَةِ[1]، وقد اتسعت الدَّائرة لتشمل أدقَّ جزئيات الزَّمان والمَكان كالحضريّ والسَّفريّ واللَّيليّ والنَّهاريّ والصَّيفيّ والشِّتائي ونحوها ما" ينبّهنا إلى مدى اهتمام العلماء والرُّواة بالقرآن وإلى مدى خدمتهم ودراستهم له من شتَّى الجوانب المختلفة[2]".

هذا، ولكلِّ حقبة زمنية، أو بقعة جغرافيَّة خصائص، " مستمدَّة من طبيعة المرحلتين اللتين عاشهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مكَّة والمدينة، حيث كان في مكَّة يعاني صدود الكافرين ومقاومتهم، وشرع في المدينة يبني الدولة الإسلاميَّة، ويقاوم مكر اليهود وتآمر المنافقين، ويكفي أن تقرأ في سورة البقرة، وتطّلع على ما تجمّع فيها من أحكام الصيام والحج والقصاص والنِّكاح والطلاق وغيرها، وما في آياتها الطَّويلة من لين وهدوء؛ لتعلم أنَّها سورة مدنية. ويكفي أن تقرأ في سورة الصّافّات؛ فتجد فيها النِّقاش والحِجاج مع المشركين، وإظهار الأدلَّة على وجود الله تعالى، وما ينبعث من آياتها القصيرة من معاني الشّدّة والتّهديد ما يزلزل القلوب؛ فتعلم أنها سورة مَكيَّة [3]"، ولا يوجد حدٌّ دقيق فاصل بين المرحلتين؛ لأنَّ" التَّحول من مرحلة إلى أُخرَى على مستوى الواقع، وعلى مستوى النَّصّ لا يتمُّ عبر طفرة، بل هو تحُّول تاريخي [4]" يخضع لعنصري الزَّمان والمَكان وأثرهما في المتلقي أيًّا كانت درجة ثقافته، ويحاول نقله من حال إلى حال.

وفي هَذَا البَحْث يهمُّنا أنْ نتعرَّف عَلَى عُنْصُرين من عَنَاصِرِ السِّيَاق الخَارِجِيّ أثّرا في مُجْرَيَاتِ تحليلِ النَّصّ القُرآنيّ الكَرِيْم واستنباطِ الأَحْكَامِ، والَّذِي يهمُّنا أكثرَ هو استعمالُ عُنْصُري الزَّمان والمَكان قَرِيْنَةً في التَّحليل النَّحويّ، كما يهمُّنا أنْ نعودَ إِلَى بداياتِ نزُول النَّصّ القُرآنيّ لنرى ما قامَ به أعلامُ الصَّحَابَة والتَّابعين من ضبْطٍ دقيقٍ يحدِّدُ زَمَانَ نزُول الآيَة ومَكَانِها، وهَذَا الضَّبط عمادٌ قويٌّ في تاريخ التَّشريع يَسْتَنِدُ إِلَيْه البَاحِثُ في مَعْرِفَة أسْلُوب الدَّعوة وألوانِ الخِطَاب والتَّدرج في الأَحْكَامِ والتَّكاليف [5]وِفْقَ ما تَقْتَضيه الحَاجَةُ وطَبِيْعَةُ المُخَاطَبين. و" ممَّا لا يخفى على الباحث أهميَّة معرفة الأحوال التي احتفت بنزول القرآن في فهمه وتفسيره، حتى صرحوا بأنَّه لا يحل لمن ابتعد عن علمها أن يتكلم في تفسير القرآن الكريم، ونوضح أوجه أهمية هذا العلم فيما يلي:

1. إنَّ علم المَكيّ والمَدَنيّ يعين الدَّارس على معرفة تاريخ التَّشريع والوقف على سنّة الله الحكيمة في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكريَّة والنَّفسية ثم بناء الأحكام والأوامر

---

1 - يُنْظَرُ: الزَّركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمَّد بن عبد الله بن بهادر: البرهان في علوم القرآن، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم (ط)، 1376 هـ ، 1957 م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1: 187.

2 - البوطي، محمَّد سَعيد رَمضان: من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت،1420 هـ، 1999 م، ص 83.

3 - البُغا، مصطفى ديب، ومستو، محيي الدين ديب: الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ودار العلوم الإنسانية، دمشق ط (2)، 1418 هـ - 1998 م (ص: 66)

4 - أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص (دراسة في عُلُوم القُرْآن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط (1) ، 2014م، ص 95.

5 - يُنْظَرُ: القطان، مناع: مباحث في عُلُوم القُرْآن، مَكْتَبَة المعارف للنشر والتوزيع، ط (3)،1421 هـ، 2000م ،ص 46.

والنَّواهي عليها، ممَّا كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلاميَّة بالقبول، ومن ثم الإذعان لأحكامها.

2. إنَّه يعرف بالمَكيّ والمَدَنيّ النَّاسخ والمنسوخ الذي كان من حكمة تربية القرآن في التَّشريع [1]".

وثمَّة تداخل بين الآيات المدنية والمَكيَّة وضَّحه المُفَسِّرونَ في مطلع تفسيرهم لكل سورة [2]، وهذا يرشدنا إلى شكل من أشكال إعجاز القرآن الكريم، ويرينا الجهود الكبيرة للمهتمين به، وليس السَّبب في معرفتنا هو علم الزَّمان والمَكان فقط، وإنَّما يُعزى إلى التَّرابط الموضوعي لكل سورة من سوره في اللَّوح المحفوظ، وقد خطَّأ أبو حيان من قال إنَّ سورة الجمعة مَكيَّة"؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْيَهُودِ وَانْفِضَاضَ النَّاسِ فِي الْجُمُعَةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ [3]".

أثر الزَّمان والمَكان في التَّحليل النَّحويّ:

القرآن الكريم كتابٌ عامٌّ وشامل لكلِّ الأزمنة والأمكنة، ومن هنا تجد فيه الألفاظ العامة مستعملةً بكثرة كالموصول العام، ولفظة (قوم) النكرة، والجمع المعرف بأل الجنسية، والنكرة في سياق النفي وأمثالها من ألفاظ العموم، ففي قوله تعالى على سبيل المثال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 168] ذكر أبو حيان(تـ 745هـ) أنَّ "هَذَا ثَانِيَ نِدَاءٍ وَقَعَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وَلَفْظُهُ عَامٌّ. قَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَتْ فِي كُلِّ مَنْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ[4]"، وفي قوله تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44] نقل أبو حيان أنَّ بعض المُفَسِّرين " قَالَ: تَقْدِيرُهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ قَبْلُ، وَهَذَا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ (مَنْ) شَرْطٌ، وَهِيَ عَامٌّ [5]"، وعلى العكس من ذلك ثمة مبهمات زال إبهامها بالعودة إلى مكان النُّزول أو زمانه.

ومن هنا لم يَغِبِ اعتمادُ عُنْصُري الزَّمان والمَكان عن أَذْهَانِ أَعْلام المُفَسِّرينَ في كلِّ مَيَادِيْنِ عملهم، ولا سيَّما في مَيْدَانِ التَّحليل النَّحويّ، فكانَ ذَلِك هاديَهم في بَعْضِ الأحيَانِ إِلَى تَحْدِيْد المُخَاطَبِ أو المُخَاطَبين بالآيَة، أو الآيَات، ومرشدَهم في تبيانِ المَقْصُودِ ببَعْضِ الضَّمَائِر والأسْمَاء المُبْهَمَة، ومَا يَتَرَتَّبُ عليه من معانٍ تنبَثِقُ عنها الأحكامُ. من هنا لن يكون من بين أمثلتنا المختارةً ما له صلة بإعراب المفردات أو الجمل أو أشباه الجمل [6]، وهذه طائفة من الأمثلة:

1 - عتر، نور الدين محمَّد الحلبي، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط (1)، 1414 هـ ،1993 م. ص 57- 58.

2 - قال الزمخشري في مطلع سورة الأنفال على سبيل المثال: "مدنية، إلا من آية 30 إلى غاية آية 36 فمكية". الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، (ط3) ، 1407 هـ،ج2ص 193.

3 - أبو حيان الأندلسي محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمَّد جميل، دار الفكر ،بيروت، ط (1): 1420 هـ، ج10، ص 171.

4 - البحر المحيط، ج2، ص 99.

5 - البحر المحيط، ج4، ص 270.

6 - جاء في المورد النَّحويّ الكبير " التحليل النَّحويّ الذي نريد هو: تمييز العناصر اللفظية الدلالية والتشكيلية المكونة للعبارة بعضها من بعض، بالاعتماد على أدلة المقام والمقال وظواهر الصوت والشكل والتركيب، لدراسة تلك العناصر في إطار السياق المحيط بها، وتحديد أنساقها وأنماطها وخصائصها ووظائفها، وما بينها من علاقات..." قَبَاوَة، فخر الدِّين: المورد النَّحويّ الكبير، دار طلاس، دِمَشْق، ط (7)1426هـ 2005م، ص8.

1. تحديد دلالة الاسم الموصول:

يُعدُّ الاسم الموصول من الأسماء الشَّديدة الإبهام، فـ" هو من الأسماء ما افتقر أبدًا إلى عائد أو خلَفه جملة صريحة أو مؤولة غير طلبيَّة ولا إنشائيَّة[1]"، ولم يكتفِ النُّحاة بذلك بل جعلوا منزلته " منزلة حرف من الكلمة من حيث كان لا يفهم معناه إلا بضم ما بعده إليه، فالموصول وحده اسم ناقص، أي: ناقص الدلالة[2]".

وقَدْ يفرضُ عُنْصُرا الزَّمان والمَكان نفسيْهما قرينَتينِ وحيدتينِ لا يمتلكُ المُفَسِّر سواهما لتَوْضِيح بَعْض الأسْمَاءِ الموصولة المُبْهَمَةِ برغم وجود جملة الصِّلة. من ذَلِك ما جَاءَ في قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا في سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ] {آلُ عِمْرَانَ: 169}. أَجْمَع المُفَسِّرونَ[3] عَلَى أنَّ هَذِهِ الآيَة واردةٌ في شهداءِ بدْرٍ وأُحُدٍ؛ لأنَّه في وقتِ نزُول هَذِهِ الآيَة لم يكنْ أَحَدٌ من الشُّهداء إلا من قُتل في هذين اليومين المشْهورين[4]. وبهَذَا يزولُ الإبهامُ عن الاسمِ المَوْصُول "الَّذِين"، وتتحدَّدُ معالِمُهُ، فيدلُّ عَلَى شهداءِ بدرٍ ابتداءً، ولا سيَّما أنَّ المَقْطَع الَّذِي وَرَدَتْ فيه الآيَة يَتَحَدَّثُ عنهم، ثمَّ اتَّسعتْ دائرتُهُ لتشمَلَ بعد ذلك كُلَّ من قُتِل في سَبِيْلِ اللهِ.

وأمَّا قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: 52] فقد " قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: نَزَلَتْ فِينَا سِتَّةً فِيَّ، وَفِي ابْنِ مَسْعُودٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَالْمِقْدَادِ وَبِلَالٍ. قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّا لَا نَرْضَى أَنْ نَكُونَ لِهَؤُلَاءِ تَبَعًا فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ فَنَزَلَتْ. وَقَالَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ: فِينَا نَزَلَتْ كُنَّا ضُعَفَاءَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ مَا يَنْفَعُنَا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ: إِنَّا مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِنَا وَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ يَرَوْنَا مَعَهُمْ فَاطْرُدْهُمْ إِذَا جَالَسْنَاكَ فَنَزَلَتْ، فَأَتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ وَهَذَا فِيهِ بُعْدٌ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّة، وَهَؤُلَاءِ الْأَشْرَافُ لَمْ يُنْذَرُوا إِلَّا بِالْمَدِينَةِ[5]"، فجاءت قرينة الزَّمان والمَكان بالتَّحديد الدَّقيق للمقصود بالموصول وصلته واستبعاد الآراء الأُخرَى.

وَكذلك يُسْهِمُ عُنْصُرا الزَّمان والمَكان في تسليطِ الضَّوء عَلَى الموصول وصلته مع عَنَاصِر أُخرَى لا تَتَبادَرُ إِلَى الذِّهن لولا وجُودهما. إليكَ شَاهِدًا قَوْله تَعَالَى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مثلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِين آمَنُوا فيعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِين كَفَرُوا فيقُولونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مثلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيْرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيْرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ] {البَقَرَة: 26}. تعدَّدَ القولُ في المَقْصُود بـ " الَّذِين كَفَرُوا ". فالطَّبَرِيّ (تـ 310هـ) رَأَى أَنَّهم الَّذِين جحَدُوا آياتِ الله، وأنكرُوا ما عرفُوا، وسترُوا ما علموا أنَّه حقٌّ، وذَلِك صفةُ المُنَافِقِينَ، لذا فهم المَعْنيون بِذَلِك، لأنَّ سياقَ المَقْطَعِ قبله في وصفهم، وأضافَ أنَّه عَنَى من كان من نظرائهِم وشركائِهم من المُشْرِكِيْنَ من أهلِ الكتابِ وغيرهم. وَصَرَّحَ الفَخْر الرَّازِيّ (تـ 606هـ) بأنَّ كونَ الآيَة مَكِّيَّة أَسْهَمَ في دُخُولِ المُشْرِكِيْنَ مع جُمْلَة المشكِّكين من الكُفَّار والمُنَافِقِينَ في إِعْجَازِ القُرآن لذكرهِ أسماءَ بَعْض الحَشَرَاتِ، ولم يكتفِ بِذَلِك، بل استدلَّ بالسِّيَاق اللُّغَوِيّ عَلَى دخُول غير المُنَافِقِينَ في هَذِهِ المنظومة. أمَّا اليَهُود فلأنَّه قِيْلَ في آخر الآيَة:" وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين الَّذِين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ ميثاقه" وهَذِهِ صفة اليَهُود، وأمَّا الكُفَّارُ والمُنافِقُونَ فقد ذُكروا في سُوْرَة المُدَّثر [وَلِيَقُوْل الَّذِين في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكَافِرون مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مثلًا كَذَلِك يُضِلُّ الله مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء]

---

1 - ابن مالك، جمال الدين محمَّد بن عبد الله: شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمَّد بدوي المختون، القاهرة: هجر للطباعة والنشر – ط (1) 1410هـ 1990م.، ج 1، ص 186.

2 - ابن يعيش، موفق الدين بن علي: شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، ج 3، ص 150.

3 - يُنْظَرُ مثلًا: الطبري، أبو جعفر محمَّد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة ط (1)، 1420 هـ - 2000 م، 7: 290.

4 - يُنْظَرُ: الرَّازي، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرَّازي الملقب بفخر الدين مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط (3) - 1420 هـ، 9: 424.

5 - البحر المحيط، 4، ص 520.

{المُدَّثر: 31}. فأمَّا الَّذِين في قلوبهم مرضٌ فهم المُنافِقُونَ، والَّذِين كَفَرُوا يَحْتمل المُشْرِكِيْنَ؛ لأنَّ السُّورَةَ مَكيَّة فقد جُمع الفريقان هنا [1].

وقد يُسْتَنَدُ إلى عُنْصُري الزَّمان والمَكان في ردِّ بَعْض أَوْجُه التَّحليل النَّحويّ الَّتِي تَسْتَنِدُ إِلَى سياقِ السُّورةِ العامّ. ففي بيانِ المَقْصُودِ بـما الموصولية "ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ " في قول الله تَعَالَى: [وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْه] {الأَنْعَام: 119} قال: أكثرُ المُفَسِّرين [2]: المُرَادُ منه قَوْلُهُ تَعَالَى في أَوَّل سُورَةِ المَائِدَة: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ] {المَائِدَة: 3}. لكنَّ الفَخْر الرَّازِيّ رَأَى في هَذَا التَّوجِيْه إِشْكَالا مفادهُ: أنَّ سُورةَ الأَنْعَام مَكيَّة، وسورةَ المَائِدَة مدنيَّةٌ، وقَوْله: "وَقَدْ فَصَّلَ" يقتضِي أَنْ يَكُون ذَلِك المُفصل مقدمًا عَلَى هَذَا المُجمل، وَالمَدَنِيّ متأخِّر عن المَكِّيّ، والمُتأخِّر يمتنعُ كونُهُ متقدمًا، وَرَأَى أنَّ الأولى أنْ يُرَادَ بـ "ما" قَوْله تَعَالَى بَعْدَهَا:" قُلْ لَا أَجِدُ في مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ" [الأَنْعَام: 145]. وهَذِهِ الآيَة، وإن كَانَت مذكورة بعد هَذِهِ الآيَة بقليل إلا أنَّ هَذَا القدر من التَّأخير لا يمنع أَنْ يَكُون هو المُرَاد [3]. وَوَافَقَهُ القُرْطُبِيّ (تـ 671هـ) مستنكرًا أنْ يُحيل بالبَيَان عَلَى ما لم ينزَّلْ بعدُ، إلا أنَّه وجد لذَلِك مخرجًا، وَهُوَ أَنْ يَكُون فَصَّلَ بِمَعْنَى: يُفَصِّلُ [4].

ونظير ذلك ما جاء في بيان اتساع دلالة (ما) الموصوليَّة ونفي دلالة الإثم على الخمر في قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 33] فقد نقل في ذلك أبو حيان أقوالًا:" أَحَدُهَا: مَا ظَهَرَ مِنْها طَوَافُ الرَّجُلِ بِالنَّهَارِ عُرْيَانًا وَما بَطَنَ طَوَافُهَا[المرأة] بِاللَّيْلِ عَارِيَةً قَالَهُ التِّبْرِيزِيُّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا ظَهَرَ طَوَافُ الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً وَما بَطَنَ الزِّنَا، وَقِيلَ: مَا ظَهَرَ الظُّلْمُ وَما بَطَنَ السَّرِقَةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ فِي رِوَايَة: مَا ظَهَرَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ نِكَاحِ الْأَبْنَاءِ نِسَاءَ الْآبَاءِ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ وَأَنْ يَنْكِحَ الْمَرْأَةَ عَلَى عَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا وَما بَطَنَ الزِّنَا وَالْإِثْمَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْإِثْمُ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَقِيلَ هُوَ صِغَارُ الذُّنُوبِ، وَقِيلَ: الْخَمْرُ، وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَصِحُّ هُنَا؛ لأنَّ السُّورَةَ مَكيَّة، وَلَمْ تُحَرَّمِ الْخَمْرُ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ أُحُدٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ اصْطَحَبُوهَا يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَاتُوا شُهَدَاءَ وَهِيَ فِي أَجْوَافِهِمْ[5]".

وَقَدْ يَخْتَلِفُ عُنْصُرا الزَّمان والمَكان في آيَة من سُورةٍ كاملةٍ، فيكون ذَلِك مُوضِّحًا بَعْضَ المُبْهَمَاتِ. إليكَ شَاهِدًا قَوْله تَعَالَى: [وَيَقُوْل الَّذِين كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ] {الرعد: 43}. اخْتَلَف المُفَسِّرونَ بالمَقْصُود بـ "مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ". رَأَى الطَّبَرِيّ أنَّ الَّذِين عِنْدَهُمْ علمُ الكتابِ هم أَصْحَابُ الكتبِ الَّتِي نزلتْ قبلَ القُرآن كالتَّوراةِ والإنجيلِ. وَوَافَقَهُ الزَّمخْشَرِيّ وابْنُ كَثِيْر [6]. أمَّا الفَخْر الرَّازِيّ فاستدلَّ بكون هَذِهِ الآيَة مدنيَّةً عَلَى أنَّ المُرَادَ شهادةُ أهلِ الكتابِ من الَّذِين آمنوا برسُول الله ﷺ وهم: عبدُ الله ابن سلَّام، وسلمانُ الفارسيُّ، وتميم الدَّاريُّ، ورد عَلَى سعيدِ بن جُبير الَّذِي كان يُبطل هَذَا الوَجْه بدعوى أنَّ السُّورةَ مَكيَّة إذ رَأَى أنَّ هَذِهِ السُّورةَ، وإنْ كَانَت مَكيَّة إلا أنَّ هَذِهِ الآيَة مدنيَّةٌ، وأضاف أنَّ إثبات النُّبُوَّةِ بقول الواحِدِ والاثنين مع كونهما غيْرَ معصومينِ لَا يَجُوْزُ [7].

2. بيان مرجع الضَّمير:

تمثِّل الضمائر شكلًا من أشكال تلاحم التراكيب، وهي أشبه بخيوط متينة تُحكِم ربط عناصر التركيب بعضها ببعض، وهي مفتقرة إلى غيرها، وكل ضمير" لا تتم دلالته على مسماه إلا بضميمة من

1 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب، 3: 353.
2 - يُنْظَرُ مثلًا: جَامِعُ البَيَانِ، 12: 69، والكشَّاف، 2: 57، والمُحرَّر الوَجِيْز، 2: 399.
3 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب،13: 130.
4 - يُنْظَرُ: الجامع لأحكام القُرْآن، 7: 73.
5 - البحر المحيط، 5: 44.
6 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ، 16: 501، والكشَّاف، 2: 504، وتفسير ابن كثير، 4: 473.
7 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب، 19: 54.

مشاهدة أو ما يقوم مقامها [1]" من العناصر السِّيَاقيَّة. ولمرجع الضَّمير ضوابط، فيأتي" مَلْفُوظًا بِهِ سَابِقًا مُطَابِقًا بِهِ نحو: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ} ... أَوْ مُتَضَمِّنًا لَهُ نَحْوَ: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ} فَإِنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْعَدْلِ ... أَوْ دَالًّا عَلَيْهِ بِالِالْتِزَامِ، نَحْوَ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ}، أَيِ: الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّ الْإِنْزَالَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْتِزَامًا.... وَقَدْ يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاق فَيُضْمَرُ ثِقَةً بِفَهْمِ السَّامِعِ نَحْوَ {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} ... وَقَدْ يَعُودُ عَلَى لَفْظِ الْمَذْكُورِ دُونَ مَعْنَاهُ نَحْوَ: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ}، أَيْ :عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ... وَقَدْ يُذْكَرُ شَيْئَانِ، وَيُعَادُ الضَّمير إِلَى أَحَدِهِمَا، وَالْغَالِبُ كَوْنُهُ الثَّانِيَ نَحْوَ: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} فَأُعِيدَ الضَّمير لِلصَّلَاةِ، وَقِيلَ: لِلِاسْتِعَانَةِ الْمَفْهُومَةِ مِن {اسْتَعِينُوا}. {جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ}، أَيِ: الْقَمَرَ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي يُعْلَمُ بِهِ الشُّهُورُ. {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} أَرَادَ " يُرْضُوهُمَا " فَأَفْرَدَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ دَاعِي الْعِبَادِ، وَالْمُخَاطِبُ لَهُمْ شِفَاهًا وَيَلْزَمُ مِنْ رِضَاهُ رِضَا رَبِّهِ تَعَالَى [2]".

وكتب التَّفسير مليئة بالأوجه التي تحتمل عود الضَّمير إليها، ولكل توجيه أثره في تحوُّلات المَعْنَى، ويسهم عنصرا الزَّمان والمَكان في اقتناص الوجه الأدقّ من بين الوجوه المتعارضة في كثير من الأحيان. قال تَعَالَى: [وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا] {الإسراء: 76}. اخْتَلَف المُفَسّرونَ في مرجع واوِ الجَمَاعَةِ المتصلة بالأفعال الثلاثة، فاعتَمَدَ الطَّبَرِيّ سياقَ المَقْطَع، واخْتَار قُرَيْشًا، إذ وَرَدَ ذَلِك في سياقِ خبَرِ اللهِ عزّ وجلّ عنهم، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ قَصَدَ اليَهُود، إذ لم يجْرِ لهم قبل ذَلِك ذكرٌ [3]، ولم يُشِرْ إِلَى عُنْصُري الزَّمان والمَكان. وَوَافَقَهُ الفَخْر الرَّازِيّ، لكنَّه اعتمد عَلَى عُنْصُري الزَّمان والمَكان، فَنَقَلَ في المَقْصُود بواو الجَمَاعَة الرَّأيين مفصَّلين: الأَوَّل: أَنَّهم أهل مكَّة همُّوا بإخراج النَّبِيّ ﷺ من مكَّة، ولو فعلُوا ذَلِك ما أُمْهِلُوا، ولكنَّ الله منعهم من إخراجه، حتَّى أمَرَه الله بالخُرُوج، ثمَّ إنَّه قَلَّ لُبْثهم بعد خُرُوجِ النَّبِيّ ﷺ من مكَّة حتَّى بعَثَ اللهُ عليهم القَتْلَ يوم بدْرٍ، والثَّانِي: أَنَّ رسُول الله ﷺ لمَّا هاجر إِلَى المَدِيْنَةِ حسدتْهُ اليَهُود، وكرهوا قُربَه منهم، فَقَالوا: يا أبا القاسم إنَّ الأنبياء إنَّما بُعثوا بالشَّام فلو خرجت إِلَيْها آمنا بك، واتَّبعناك، وَقَدْ علمْنا أنَّه لا يمنعُك من الخُرُوج إلا خوفُ الرُّوم. فإنْ كنْتَ رسُولَ الله فالله مانعُك منهم. فعسكَر رسُول الله ﷺ عَلَى أميالٍ من المَدِيْنَة حتَّى يجتمعَ إِلَيْه أَصْحَابه، ويراه النَّاسُ عازمًا عَلَى الخُرُوج إِلَى الشَّام لحرصه عَلَى دخول النَّاس في دين الله، فنزلت هَذِهِ الآيَة، فرجع، وَرَأَى أن القول الأَوَّل اختيار الزَّجَّاج [4]، وأنه هو الوَجْه، ومُسْتَنَدُهُ أن السُّورة مَكيَّة [5].

وقد يَعْمَدُ المُفَسِّر إِلَى تَرْجيح بَعْضِ الأَوْجُه مِنْ خِلَالِ اعتماد العَنَاصِر اللُّغَوِيّة المَلْفُوظة يعضُدها الزَّمان والمَكان. قال تَعَالَى: [أَمْ تُرِيدُوْنَ أَنْ تَسْأَلُوا رسُولكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ] {البَقَرَة: 108}. وقع الاخْتِلَاف بين المُفَسّرين في المُخَاطَب بالفعل "تريدُوْنَ"، أهم المُسْلِمون أم أهلُ مكَّة أم اليَهُود [6]؟ وَقَدْ نقل الفَخْر الرَّازِيّ هَذَا الاخْتِلَافَ، ومالَ إِلَى الرَّأي الثَّالِثِ مُسْتندًا إِلَى سياقِ المَقْطَعِ {الآيَات 40-47من سورة البَقَرَة} وعَلَى نزُول الآيَة في المَدِيْنَةِ، وعَلَى استبعادِهِ وُقُوعِ مثلِ هَذَا السؤالِ من المُؤْمِنِينَ، فنقلَ آرَاءَ ثَلَاثَةِ فرقٍ: الفريقُ الأَوَّل: يَرَى أَنَّهم المُسْلِمون، وَقَدَّم مَجْمُوعَةً من البَراهين: الأَوَّل: أَنَّه قالَ في آخرِ الآيَة: "وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان"، وهَذَا الكَلَامُ لا يصحُّ إلا في حقِّ المُؤْمِنِينَ، والثَّانِي: أن قَوْله: "أَمْ تُرِيدُوْنَ" يقتضِي مَعْطُوفًا عليه، وَهُوَ قَوْلُه: [لاَ تَقُولُواْ راعنا] {البَقَرَة: 104} فكأنَّه قال: وقولوا: انظرْنا، واسْمعوا. فهل تفعلونَ ذَلِك كما أُمرتم أم تُرِيدُوْنَ أَنْ تَسْألوا رسُولكم؟ والثَّالِثُ: أنَّ المُسْلِمِيْنَ كانوا يَسْألون النبيَّ محمَّدا ﷺ عن أمورٍ لا خيرَ لهم في البَحْث عَنْهَا ليعلموها كما سألَ اليَهُودُ مُوسَى ﷺ ما لم يكنْ لهم فيه خيرٌ، والرَّابعُ: سألَ قومٌ من المُسْلِمِيْنَ أن يُجْعَلَ لهم ذاتُ أنْواطٍ كمَا كان للمُشركين ذاتُ أنْواطٍ، وهي شجرةٌ كانوا يَعبدُوْنَها، ويُعلِّقون عَلَيْهَا المأكولَ والمَشروبَ كما سألوا مُوسَى أنْ يَجْعَلَ لهم إلهًا كمَا لهم آلهةٌ.

---

1 - شرح التسهيل، 1: 167.
2 - الإتقان في علوم القرآن ،2: 334.

3 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ،17: 511.
4 - يُنْظَرُ: مَعَاني القُرْآن وإعرابه، 3: 254.
5 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب، 21: 380.
6 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ، 2: 490- 492.

الفريق الثَّانِي: يَرَى أنَّه خطابٌ لأهلِ مكَّة، واسْتَدَلّوا بأنَّ عبدَ الله بن أميَّةَ المخزوميَّ أتى رسُول الله ﷺ في رهْطٍ من قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يا محمَّد. والله ما أؤمنُ بك حتَّى تفجَّر لنا من الأرضِ ينْبُوعًا، أو تكونَ لك جنَّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ، أو يكونَ لك بيتٌ من زُخرفٍ، أو ترقَى في السَّمَاء بأنْ تَصْعَدَ، ولن نُؤمنَ لرقيِّك بعد ذَلِك حتَّى تنزِّلَ علينا كتابًا من الله إلَى عبد الله بن أمية أنَّ محمَّدا رسُولُ الله فاتبعوه. وَقَالَ له بقيَّة الرَّهط: فإن لم تستطعْ ذَلِك فائتنا بكتابٍ من عِنْدِ الله جُمْلَةً وَاحِدَةً فيه الحلالُ والحَرَامُ والحدودُ والفرائضُ كما جَاءَ مُوسَى إلَى قومِهِ بالألواحِ من عِنْدَ الله فيها كلُّ ذَلِك، فنؤمنَ بك عِنْدَ ذَلِك، فأَنْزَلَ الله تَعَالَى: أم تريدُوْنَ أن تسألوا رسُولكم محمَّدا أن يَأْتِيكم بالآيَات من عِنْدَ الله كما سأل السَّبعون، فَقَالوا: أرِنا الله جهرةً، واسْتَدَلّوا أيضًا بأنَّ قُرَيْشًا سألتْ محمَّدا ﷺ أنْ يجعل لهم الصَّفا ذهبًا وفضَّةً، فَقَال: نعم. هو لكم كالمَائِدَة لبني إسْرَائِيْل، فأبوا، ورجعُوا.

الفريق الثَّالِث: يَرَى أنَّهم اليَهُودُ، وَرَأَى الفَخْر الرَّازِيّ أنَّ هَذَا القولَ أصحُّ؛ لأنَّ هَذِهِ السُّورة من أوَّل قَوْله:" يا بني إسْرَائِيْل اذكروا نِعْمَتِيَ" حكايَة عنهم ومحاجَّةٌ معهم، ولأنَّ الآيَة مدنيَّةٌ، ولأنَّه جَرَى ذكْرُ اليَهُودِ وما جَرَى ذكرُ غيرهم، ولأنَّ المؤمنَ بالرسُول لا يكادُ يسألُهُ فإذَا سألَهُ كان مُتبدلًا كفرًا بالإيمانِ. وَوَافَقَهُ أبو حيَّان [1].

وَيُسْتدلُّ المُفَسِّر بعُنْصُري الزَّمان والمَكان وبالمُعْطَيَاتِ النَّصّية المَلْفُوظَةِ في الآيَة عَلَى تَحْدِيْدِ مرجع بَعْضِ الضَّمَائِر. قال تَعَالَى:[وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيْرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ]{ الأَنْعَام: 91} [2]. ذَكَرَ الفَخْر الرَّازِيّ أنَّ الضَّمَائِرَ المُتَّصِلَةَ بالأَفْعَال "قدروا، قَالُوا" يُقصدُ بها اليَهُودُ أو بَعْضُهم، وَنَقَلَ في ذَلِك قولين:

القول الأَوَّل: إنَّ هَذِهِ الآيَة نزلتْ في حقِّ اليَهُود، وعن ابْن عبَّاس: أنَّ مالك بن الصَّيف كان من أحبار اليَهُود ورؤسائهم، وَكَانَ رجلًا سمينًا، فدخل عَلَى رسُول الله ﷺ، فَقَال له رسُول الله ﷺ: أنشدكَ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّورَاةَ عَلَى مُوسَى هل تجدُ فيها: إنَّ الله يبغضُ الحَبْر السَّمين. وأنت الحبْرُ السَّمينُ، وَقَدْ سمنْتَ من الأشياءِ الَّتِي تُطعِمُك اليَهُودُ، فضحِك القَوْمُ، فغضبَ مالكُ بن الصَّيف، ثمَّ التفتَ إلَى عمرَ، وَقَالْ: ما أَنْزَل الله عَلَى بشرٍ من شيءٍ، فَقَال له قومُه: ويلكَ ما هَذَا الَّذِي بلغَنَا عنك؟ فَقَال: إنَّه أغضبني، ثمَّ إنَّ اليَهُودَ لأجلِ هَذَا الكَلَام عزلُوه عن رياستهم، وجَعَلُوا مَكَانهُ كعبَ بنَ الأشْرَف.

القول الثَّانِي: إنَّ قائل هَذَا القول "مَا أَنْزَل الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ" قومٌ من كُفَّارِ قُرَيْش. وردَّ القول الثَّانِي بأنَّ كُفَّار قُرَيْش ينكرون نُبُوَّة الأنبياء جَمِيْعًا، فكيف يُمْكِنُ إلزامهم بنُبُوَّة مُوسَى عليهم؟ كما أنَّ ما بعد هَذِهِ الآيَة لا يليقُ بكُفَّار قُرَيْش، وإنَّما يليقُ باليَهُود، وَهُوَ قول الله تَعَالَى:[تَجْعَلُونَهُ قراطيس تُبْدُوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيْرًا وَعُلِّمْتُمْ مّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ] {الأَنْعَام: 91 } فمن المعلومِ بالضَّرورة أنَّ هَذِهِ الأحوالَ لا تليقُ إلا باليَهُود، وهَذَا يُفْسِدُ تَوْجِيْهَ من يَقُوْل: إنَّ أوَّل الآيَة خطابٌ مع الكُفَّار، وآخرَها خطابٌ مع اليَهُود؛ لأنَّه يُوجِبُ تفكيكَ نظْم الآيَة وفَسَادِ تركيبِها، وذَلِك لا يليقُ بأحسنِ الكَلَام فضلًا عن كلام رب العالمين [3].

وَقَدْ يُوَضِّحُ عُنْصُرا الزَّمان والمَكان المُرَادَ ببَعْضِ الضَّمَائِر، ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا من أحكامٍ شرعيَّةٍ. إليكَ شَاهِدًا قَوْله تَعَالَى: [وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا] {الفرقان: 52}. اخْتَلَف المُفَسِّرونَ في نوعِ الجِهادِ الَّذِي يعُودُ عليه الضَّمير في "به". أهو بالقُرآن أم بالإسْلَامِ أم بالقِتَالِ؟ ذكر الطَّبَرِيّ الرَّأيين الأَوَّل والثَّانِي [4]. وَاسْتَبْعَدَ الفَخْر الرَّازِيّ الرَّأيَ الثَّالِثَ، ومالَ إلَى أنَّ المُرَادَ بذلُ الجهدِ في الأداءِ والدُّعَاءِ، وعَلَّلَ رفضَه

1 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب، 3: 643، و: البحر المحيط،، 1: 516.
2 - رأى الفخر الرَّازي" أنَّ الأكثرين اتفقوا على أنَّ هذه السُّورة مكيّة، وأنها أنزلت دفعة واحدة، ومناظرات اليهود مع الرَّسُوْل عليه الصَّلاة والسلام كانت مدنية، فكيف يمكن حمل هذه الآية على تلك المناظرة؟ ... الأقرب عندي أن يقال: لعل مالك بن الصيف لمَّا تأذى من هذا الكلام طعن في نبوة الرَّسُوْل عليه الصَّلاة والسلام، وقال: ما أنزل الله عليك شيئًا البتة، ولست رسولًا من قبل الله البتة، فعند هذا الكلام نزلت هذه الآية". مفاتيح الغيب، 13: 64.
3 - يُنْظَرُ: مفاتيح الغيب، 13: 64، والبحر المحيط،، 4: 181، 182.
4 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ، 19: 281.

الرَّأيَ الثَّالِثَ بأنَّ السُّورةَ مَكيَّة، والأَمْرُ بالقِتَال وردَ بعد الهجرةِ بفترةٍ زمنيَّةٍ. وَوَافَقَهُ القُرْطُبِيّ [1]. وَأَجَازَ أبو حيَّان أنْ يَعُودَ عَلَى كل ما يُحتملُ من أَقْوَال المُفَسِّرين، أي: بالقُرآن، أو بالإِسْلَامِ، أو بالسَّيفِ ، أو بتركِ طاعَتِهم، ولم يُشرْ إِلَى زمنِ نزُول الآيَة أو مَكَانها [2].

ولا يتوقف الأمر عند الضمائر المتصلة ففي قوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس: 78] التي نزلت في الحقبة المَكيَّة في حقّ أُبَيّ بن خلف الذي " جَاءَ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ بِمكَّة، فَفَتَّتَهُ فِي وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ: مَنْ يُحْيِي هَذَا يَا محمَّد؟ فَقَالَ: اللَّهُ يُحْيِيهِ، وَيُمِيتُكَ، وَيُحْيِيكَ، وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ، ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَة. وَأُبَيٌّ هَذَا قَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ يَوْمَ أُحُدٍ بِالْحَرْبَةِ، فَخَرَجَتْ مِنْ عُنُقِهِ، وَوَهَمَ مَنْ نَسَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْجَائِيَ بِالْعَظْمِ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبي بْنُ سَلُولَ؛ لأَنَّ السُّورَةَ ، وَالْآيَة مَكيَّة بِإِجْمَاعٍ، وَلِأَنَّ عبد الله بن أبيّ لَمْ يُهَاجِرْ قَطُّ هَذِهِ الْمُهَاجَرَةَ [3]".

وهذا يعني أنَّ المُفَسِّر قد يجدُ في سبب النُّزول دليلًا على زمان الآيَة ومكانها، ففي قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} [السجدة: 18]"قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ: نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عقبة تلاحيا، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: أَنَا أَذْلَقُ مِنْكَ لِسَانًا، وَأَحَدُّ سِنَانًا، وَأَرَدُّ لِلْكَتِيبَةِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: اسْكُتْ، فَإِنَّكَ فَاسِقٌ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: فَنَزَلَتْ عَامَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْفَاسِقِينَ، فَتَنَاوَلَتْهُمَا وَكُلَّ مَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمَا. وَقَالَ الزَّجَّاجُ، وَالنَّحَّاسُ: نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ. فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْآيَة مَكيَّة؛ لِأَنَّ عُقْبَةَ لَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ، وَإِنَّمَا قُتِلَ بِطَرِيقِ مكَّة مُنْصَرَفَ بَدْرٍ [4]".

3. توضيح النَّكرة وبيان نوع الاستثناء:

وَقَدْ يَعْتَمِدُ المُفَسِّر عَلَى عُنْصُري الزَّمان والمَكان في استبعادِ بَعْض العَنَاصِر الَّتِي قد تُفهمُ من العموم الَّذِي تَسْمَحُ به بِنيةُ الكَلِمَة. إليكَ شَاهِدًا قَوْله تَعَالَى: [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُوْنَ إِلَيْه أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ] {النحل: 103}. أشكَلَ تنكيْرُ كَلِمَة "بَشَر"، فاخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في الَّذِي عناهُ المُشْركونَ بقَوْلهم عَلَى أَقْوَالٍ مُتعدِّدةٍ (عبد رومي، بلعام، يسار، وجبر [5]). رَصَدَ القُرْطُبِيّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ، وَنَقَلَ عن النَّحاس [6]: أنَّ هَذِهِ الأَقْوَالَ ليستْ بمتناقضةٍ، وردَّ ما ذكره الضَّحَّاك من أنَّه سلمانُ الفارسيُّ، وعمدتُهُ أنَّ سلمان إنَّما أتى النَّبِيّ ﷺ بالمَدِيْنَة، وهَذِهِ الآيَة مَكيَّة [7].

وفي قوله تعالى: { لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} [الغاشية: 22 - 24] قال ابن عطيَّة(تـ 541هـ) " وقوله تعالى: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ قال بعض المتأولين الاستثناء متصل، والمَعْنَى إِلَّا مَنْ تَوَلَّى فإنك مصيطر عليه . فالآيَة على هذا لا نسخ فيها، وقال آخرون منهم: الاستثناء منفصل، والمَعْنَى لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ، وتمَّ الكلام. وهي آيَة موادعة منسوخةٌ بالسَّيف ثم قال إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ، وهذا هو القول الصَّحيح لأنَّ السُّورَةَ مَكيَّة، والقتال إنَّما نزل بالمدينة[8]".

---

1 - يُنْظَرُ: الجامع لأحكام القُرْآن، 13: 58.
2 - يُنْظَرُ: البحر المحيط،، 6: 464.
3 - البحر المحيط، 9: 84.

4 -البحر المحيط، 8: 438.
5 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ، 17: 298، 299.
6 - يُنْظَرُ: النَّحاس، أبو جعفر أَحْمَد بن محمَّد: مَعَاني القُرْآن الكريم، تح: محمَّد علي الصَّابوني، جامعة أم القرى، ط (1) 1408هـ، 1988م، 4: 107.
7 - يُنْظَرُ: الجامع لأحكام القُرْآن، 10: 178.
8 - ابن عطية ،أبو محمَّد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تح: عبد السلام عبد الشافي محمَّد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط (1) 1422 هـ، 5: 475.

4. بيان معنى الأداة:

التَّعريفُ واحدٌ من المعاني المُهمَّة التي تؤديها الأداة (أل) ذات المعاني الكثيرة التي تفهم من السِّيَاق تارةً ومن طبيعة ما دخلته تارةً أُخرَى، وتأتي للعهد الذِّكري أو الحُضوري أو الذِّهني، الذي عبَّر عنه سيبويه (تـ 180هـ)"وإنما يُدخلون الألف واللام ليعرِّفوك شيئًا بعينه قد رأيتَه، أو سمعت به [1]"، وبتعبير آخر "هي: التي عُهد مصحوبها، بتقدُّم ذكره. نحو: جاءني رجلٌ فأكرهت الرجلَ، أو بحضوره حسًّا، كقولك لمن سدَّد سهماً: القرطاسَ، أو علماً، كقوله تعالى " إذ هما في الغار [2] ". وهذا الكلام في ميدان الصِّناعة النَّحوية، والأمر مختلف لدى المُفَسِّرين إذ تسهم جملة من المعطيات السِّيَاقيَّة مع عنصري الزَّمان والمَكان في معرفة معناها الأدقِّ في خدمة المَعْنَى وتفسير النَّصّ الكريم.

فقد يَتَشابكُ عُنْصُرا الزَّمان والمَكان مع المَعْنَى المُعَزَّزِ بتراكيبَ مُمَاثِلَةٍ من القُرآن الكَرِيْم وسَمْتِ العَرَبِ في كَلَامِها في تَرْجِيْحِ بَعْضِ أَشْكَالِ التَّحليل النَّحويّ. إليكَ شَاهِدًا ما جَاءَ في تفسير" الْبَلَدِ "، وفي دلَالَة "حِلٌّ" عَلَى المُسْتَقْبَل في قَوْلِهِ تَعَالَى: [لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ] {الْبَلَد: 1، 2}. رَأَى الطَّبَرِيّ أَنَّ الْبَلَدَ مكَّة [3]. أمَّا القُرْطُبِيّ فعَضَد رأيه بعُنْصُري الزَّمان والمَكان، وَنَقَلَ إجماع المُفَسِّرين عَلَى أن المَعْنَى: أُقسم بالْبَلَدِ الحَرَامِ الَّذِي أنت فيه، لكرامتك علي وحبي لك، وَنَقَلَ عن بَعْض المُفَسِّرين أن المَعْنَى: نحلف لك بهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي شرفته بمَكَانك فيه حيًّا، وبركتك ميتًا، يعني المَدِيْنَة، وَرَأَى أَنَّ الأَوَّل أصحُّ؛ لأَنَّ السُّورَةَ نزلتْ بمكَّة باتفاقٍ، واعْتَمَدَ في إثباتِ دلَالَةِ قَوْله تَعَالَى: "وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ" عَلَى المُسْتَقْبَلِ عَلَى قَوْله تَعَالَى:[إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ] {الزمر: 30}، وعَلَى ما هو شَائِعٌ في كَلَامِ العَرَب، إذ تقولُ لمن تَعِدُهُ الإكرامَ و الحبَاء: أنت مكرمٌ مَحْبُوٌ. وَهُوَ في كَلَامِ الله واسِعٌ؛ لأَنَّ الأحوالَ المُسْتَقْبَلَةَ عِنْدَه كالحَاضِرةِ المُشَاْهِدةِ، وكفاك دليلًا قاطعًا عَلَى أنَّه للاستقبال، وأنَّ تفسيرَهُ بالحَاْل محالٌ أنَّ السُّورةَ مَكيَّة باتفاقٍ، وَقَدْ نزلتْ قبل الفتْحِ[4].

وقد أُستُبعدتِ العهديَّة الذهنيَّة في (أل) الداخلة على الزَّكاة بالاعتماد على زمن النُّزول ومكانه في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاة وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [النمل: 3] . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ" وَالزَّكاة هُنَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ الْمَفْرُوضَةِ؛ لأَنَّ السُّورَةَ مَكيَّة قَدِيمَةٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْمَفْرُوضَةَ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ. وَقِيلَ: الزَّكاة هُنَا بِمَعْنَى الطَّهَارَةِ مِنَ النَّقَائِصِ وَمُلَازِمَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ[5]". ففي كلامه ما يبقي الباب مفتوحًا لكل الاحتمالات، لكنَّه عاد ورجح الأول في معرض تفسيره قول الله تعالى:{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24، 25]، فقال "وقوله تعالى: وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ الصحيح أَنَّها محكمة، وأن هذا الحق هو على وجه الندب، لا على وجه الفرض، و: مَعْلُومٌ يراد به متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفريضة بفعل المندوبات، وقال منذر بن سعيد: هي الزَّكاة المفروضة وهذا ضعيفٌ؛ لأَنَّ السُّورَةَ مَكيَّة وفرض الزَّكاة بالمدينة[6]". ويظهر باستدلاله بعنصري الزَّمان والمَكان اختلاف المَعْنَى وانتقال الحكم المستنبط منه من الوجوب إلى الندب.

1 - سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون مكتبة الخانجي، القاهرة،1408 هـ - 1988 م، 2: 182.

2 - المرادي، أبو محمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله، الجنى الداني في حروف المعاني تحقيق: د فخر الدين قباوة، والأستاذ محمَّد نديم فاضل دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ط1) 1413 هـ - 1992 م، 194.

3 - يُنْظَرُ: جَامِعُ البَيَانِ، 24: 420.

4 - يُنْظَرُ: الجامع لأحكام القُرْآن، 20: 60.

5 - المحرر الوجيز،4: 248.

6 - المحرر الوجيز،5: 175.

وأمَّا الأداة (هل) في قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [النازعات: 15] فَـ"هذا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ يَحُثُّ عَلَى الْإِصْغَاءِ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ وَعَلَى التَّأَسِّي. وَقِيلَ: هَلْ بِمَعْنَى قَدْ، أَيْ: قَدْ أَتاكَ، وَالظَّاهِرُ خِلَافُ هَذَا؛ لأَنَّ السُّورَةَ مَكِيَّة[1]".

الخاتمة والنتائج:

توصل البَحْث إلى جملة من النتائج، وأهمها:

- المَعْرِفَةُ بمَكَانِ النُّزول وبزَمَانِهِ مع عَنَاصِرَ منها ما هو من داخلِ التَّرْكِيْبِ، وَمِنْهُا ما هو من خارجِ التَّرْكِيْبِ إحدى أدواتِ التَّجَاذُبِ بين المُفَسِّرينَ، وبدا أَثَرُها في تَوْجِيْه التَّحليل النَّحويّ لدى أَعْلام المُفَسِّرينَ.

- كان عنصرا الزَّمان والمَكان مختلفين في نظر المشتغلين بخدمة النص القرآني عمومًا عمَّا هو متعارف عليه في ميدان اللُّغة التي اعتنت به في مضماره الجغرافيّ، في حين لم يرضَ الشُّعراء بالمكان الحقيقي إذا غادرته مسحة الجمال التي ينشدونها في كل مفردة من مكونات قصائدهم. وأكَّد الأدباء من كتاب الروايَة على أهمية تبادل التأثر والتأثير بين المبدع والمكان الذي صممه ليكون مسرحًا تدور فيه الأحداث التي يرسمها.
- وعليه فقد كان المكان في عمل المُفَسِّرين حقيقيًّا بامتياز لا يقبل أيَّ عنصر يفسد مصداقيته، أو ينقل الأحداث نقلًا تشوبه شائبة تقدح بنقل الأحداث بصورة دقيقة صحيحة.
- حاول بعض حملة الفكر الغربي النيل من مصداقية النَّص التُّراثي عمومًا والنَّص القرآني خصوصًا لكن هذه المحاولات لم تلقَ رواجًا لبعدها عن الأسس التي تميّز كلَّ حضارة من الحضارات، ولإغفالها بل إنكارِها البعد الغيبي في الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة.
- خيَّم عنصرا الزَّمان والمَكان على عمل المُفَسِّرين الذين لم يغادروا آيَة أو سورة إلا بعد إدراجها تحت حقبة زمنية محددة في موقع جغرافي واضح المعالم.
- فرضت طبيعة الأدوات السِّيَاقيَّة في هذا الميدان أن ينحو نحو إيضاح المبهمات من الأسماء الموصولة ذات الافتقار إلى الصِّلة من النَّاحية الصِّناعية والافتقار إلى الظُّروف التي لابست الحدث الذي وقعت فيه.
- شكَّل مرجع الضَّمير ميدانًا رحبًا لاختلاف المُفَسِّرين، وما يتبعه من تغير في المَعْنَى واختلاف في الحكم المستنبط منه، فكانت المعطيات الزَّمانيَّة والمكانيَّة تحسم بعض الجدل في هذا المضمار ببيان المخاطب أو المخاطبين أو الغائبين على وجه الدقَّة.
- وكانت أداة التَّعريف (أل) من بين المكوّنات التَّركيبية التي ورد فيها الاختلاف بين المُفَسِّرين الذين استعانوا بعنصري الزَّمان والمَكان لتبيان العهديَّة والجنسيَّة وأثر ذلك في المَعْنَى والحكم المنبثق عنه.

1 - البحر المحيط، 7: 314.

- لم يكن عنصرا الزَّمان والمَكان وحدهما الدَّليل القاطع لدى المُفَسِّرين في عملهم التَّحليليّ بل استعانوا بمنظومةٍ أُخرَى من المُعطيات السِّيَاقيَّة كأسباب النُّزول وما ماثل تركيب الآيَة موضع التَّحليل من نصوص القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1.أبو حيَّان الأندلسي، محمَّد بن يُوْسُف: البحر المحيط، تح: عادل عبد الموجُود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (2) 2007م، 1428هـ.

- أبو حيَّان الأندلسي، محمَّد بن يُوْسُف: البحر المحيط، تح: صدقي محمَّد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط (2) 1420 هـ.

2.أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص (دراسة في عُلُوم القُرْآن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط (1)، 2014م.

3.البُغا، مصطفى ديب، ومستو، محيي الدين ديب: الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ودار العلوم الإنسانية، دمشق ط (2)، 1418 هـ - 1998 م.

4.حسين، خالد حسين: شعرية المكان في الروايَة الجديدة (الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجا).

5.الرَّازيّ، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين الَّتِيمي الرَّازيّ: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العَرَبي، بيروت ط (3) 1420 هـ.

6.الزَّركشي، محمَّد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القُرآن، تح: محمَّد أبو الفضل إِبْرَاهِيْم، دار المَعْرِفَة، بيروت، لبنان، 1391هـ.

7.الزَّمخْشَريّ، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأوِيْل، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العَرَبي، بيروت، ط (1)، 1417هـ 1997م .

8.ابن سنان الخفاجي، أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن سعيد الحلبي: سر الفصاحة، ط (1) دار الكتب العلمية،1402هـ،1982م.

9.سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام محمَّد هارون مكتبة الخانجي، القاهرة،1408 هـ - 1988 م.

10.السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القُرآن، تح: سعيد المندوب ، دار الفكر، بيروت، لبنان ط (1)1416هـ، 1996م.

11.الطَّبَرِي، محمَّد بن جرير: جامع البَيَان في تأويل القُرآن، تح: محمود محمَّد شاكر، راجع أحاديثه: أحمد محمَّد شاكر، مؤسسة الرِّسَالَة، ط (1) 1420هـ 2000م.

12.عتر، نور الدين محمَّد الحلبي، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط (1)، 1414 هـ،1993 م.

13.ابن عَطيَّةَ، أبو محمَّد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السَّلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (1)، 1422هـ، 2001م.

14.ابن فارس، أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللُّغة، تح: عبد السَّلام هَارُون، اتحاد الكتاب العَرَب، 1423هـ، 2002م.

15.قَبَاوَة، فخر الدِّين: المورد النَّحْويّ الكبير، دار طلاس، دِمَشْق، ط (7)1426هـ 2005م.

16.القُرْطُبِيّ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد: الجامع لأحكام القُرآن، تح: أحمد البردُوْنَي، وإِبْرَاهِيْم أطفيش، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط (2)، 1384هـ، 1964م.

17.القطَّان، مناع: مباحث في عُلُوم القُرْآن، مَكْتَبَة المعارف للنشر والتوزيع، ط (3)1421، هـ، 2000م.

18.الكفوي، أبو البَقَاء العُكبريّ أيوب بن مُوسَى الحسيني: الكليات (معجم في المُصْطَلَحات والفروق اللُّغَوِيّة)، تح: عدنان درويش، ومحمَّد المصري، مؤسسة الرِّسَالَة، بيروت، لبنان، ط (2) 1419هـ 1998م.

19.ابن مالك، جمال الدين محمَّد بن عبد الله: شرح التسهيل، تح: عبد الرحمن السيد ومحمَّد بدوي المختون، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط (1) 1410هـ 1990م.

20.المرادي، أبو محمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله، الجنى الداني في حروف المعاني تح: د فخر الدين قباوة والأستاذ محمَّد نديم فاضل دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ط1) 1413 هـ - 1992 م.

21.ابن النَّحاس، أبو جعفر أَحْمَد بن محمَّد: مَعَاني القُرْآن الكريم، تح محمَّد علي الصَّابوني، جامعة أم القرى، ط (1) 1408هـ، 1988م.

22.ابن يعيش، موفق الدين بن علي: شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

المجلات العلميَّة:

1. مجلة الآداب واللُّغات الجزائرية، م (8)، ع (2)، جوان - جويلية،2022م.
2. مجلة (فصول) ، المجلد 4، العدد2 ،1984.
3. مجلة الفيصل الأردنية، العدد (246)، 1421هـ، 2000م.

The effect of time and place on grammatical analysis according to prominent commentators

Abstract

The research sheds light on a form of grammatical analysis among prominent commentators, as they benefited from the two elements of time and place (Mecca and Medina) as important contextual influences that influenced the clarification of some ambiguous matters, clarification of the pronoun reference, and the meanings of some tools, which contributes to a far-reaching form of grammatical analysis. On parsing vocabulary and sentences in its traditional .form

The importance of the research lies in the fact that it clarified these two elements in the fields of language, literature, and interpretation to monitor the view of each specialist from his own perspective. This was followed by detailing these two elements among those working in serving the Book of God Almighty, including interpreters and theorists in the field of Qur'anic sciences, ancient and contemporary, supporters and opponents. This was followed by a set of models. Which the eminent commentators dealt with in explanation and clarification, depending on the time and place of the event, and they were few, which .constituted one of the difficulties facing the research

The research was preceded by countless studies of the Meccan and the Medinan, ancient and modern, and what is new in our research is that it dealt with the Meccan and the Medina as a tool in the hands of the grammatical analyst and interpreter in explaining the meaning of God Almighty, and the legal rulings that resulted in this regard. The research was based on the Scientific Method of .research, which combines... Between inductive and deductive methods

Keywords: time - place - grammatical analysis - interpreters